المذاهب في علم الأخلاق

□ عيد الدرويش

الأخـلاق منظومـة مـن القـيم المختزلـة والمتداخلـة لتجارب الإنسانية،التي تصب في جانب المنفعة الفردية من جهـة، والمنفعـة الجمعيـة مـن جهـة أخـرى، فالإنسـان هـو موضوعها ومحمولها، وهو الكائن الأخلاقي الوحيد في هذه الحيـاة دون سـواه، ولا أخـلاق بـدون فكـر، ولا فكـر بـدون أخلاق، فالأخلاق من العلوم المعيارية، والعلوم المعيارية هي علم الجمال، وعلم المنطق، وعلم الأخلاق.

الأخـلاق بـذاتها ليسـت علمـاً، ،ولكـن موضـوعها يصبح موضـوع علـم، وقـد تغـيرت صيغها بـتغير المعرفـة، وتبـدلت منظومتهـا عـبر الزمن،بمـا يلـبي حاجـات الإنسـان القيميـة والمادية، فما كان غير أخلاقي في الماضي أصبح أخلاقياً في الحاضر، فضلاً عن أن معايير الأخلاق متباينة من مكـان لآخـر، وما يعتبر أخلاقياً هنـا، قـد لا يعتبر أخلاقياً هنـاك، وفي المسار الزمني، نجد أن وجود الأخلاق قبل وجود الأديان، والدليل على ذلك قول الرسول الكريم (ص) "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فالشعوب الـتي كانـت تعيش في جاهليتها تمتلك معـايير أخلاقيـة، حـضّ عليهـا الإسـلام، والأخـلاق هـي الـتي صاغت إنجازات الحضارة، لأنها أسها وعنوانها، وبقـدر تلك الأهميـة نجـد في انحسـارها انحسـار الحضـارة، وأن حيـاة الشعوب قد بدأت تتجه إلى الهاوية.

فكلما زادت الفضائل بين الناس ازداد المجتمع تماسكاً والعكس صحيح، والفضائل والأخلاق لا يمكن أن تزول من الوجود مادام هناك من يمثل العنصر البشري، ومما لا شك فيه أن المعرفة الكلية هي تلك الحصيلة من الفضائل التي يسعى إليها الناس على اختلاف مشاربهم ودرجات وعيهم، والمعرفة هي التي تدفع الإنسان ليبلغ سعادته، فجميع العلوم التي يتم البحث فيها هي في جوهرها سعادة الإنسان ورقيه، وتحقيق الرفاهية، وغايتها السعادة التي يبحث عنها طوال حياته، وعلينا أن نتتبع المعايير التي يتوجب اتباعها، وما هي أبعادها، وهل تنطبق على كل الأفعال التي يقوم بها الفرد لسعادته وسعادة الآخرين كالأمانة والصدق والمروءة والشجاعة؟ وهل تبقى فكرة الخير الأسمى للسعادة هي محور الفضيلة، كما دعا إليها فلاسفة الإغريق؟ وهل الالتزام الخلقي كما دعا إليه "كانط" لتسود الفضيلة بين أفراد المجتمع هو ذلك الواجب الذي يتمثله لتحقيق المسألة الأخلاقية؟

يرى أرسطو أن تلك القيم لا يكفي تدوينها في الكتب، فلا بد من أن تكون سلوكاً معاشاً في تعامل الناس فيما بينهم فيقول(فيما يتعلق بالفضيلة، لا يكفي أن يعلم ما هي؟ بل يلزم الزيادة على ذلك رياضتها على حيازتها واستعمالها، أو إيجاد وسيله أخرى لتصيّرنا فضلاء أخياراً، ولو كانت الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخياراً، لاستحقت ـ كما يقول "تيوغنيس" ـ أن يطلبها كل الناس، وأن تشترى بأغلى الأثمان، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادئ في هذا الصدد، هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير، وتجعل القلب الشريف بالفطرة، صديقاً للفضيلة، وفياً بعهدها)[1] والفضيلة والأخلاق تحتاج إلى التضحية والشجاعة، فمنهم من يجاهد في سبيل الله ونصرة الحق، لأنه يرى ذلك الفعل من أجل سيادة الفضيلة، وبدونه ستسود الرذيلة، ما فعله الرسول الكريم عندما نصحه عمه أبي طالب، أن يعدل عن هذا الدين، فأجابه (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك الأمر حتى يظهره الله، أو أُهْلك فيه ما تركته) وهذه معاناة الدعاة والمصلحين الذين يعملون لترسيخ مبادئ الأخلاق والفضيلة، كذلك سقراط علم الشبان في أثينا من أجل تقويم أخلاقياتهم، فطاردوه، وحكم عليه بالإعدام، وكان بإمكانه أن ينجو من ذلك لكنه رفض إلا أن يتابع تعليمه، وابن رشد الفيلسوف الشهير الذي اضطهد من أجل اشتغاله بالفلسفة، ونُسُجِن ونفي، ولم يعبأ بذلك لتمسكه بمبدأ سيادة الفضيلة، التي تدفعه غاية الخير الأسمى، لتلك المبادئ التي يدافع من أجلها، وهي ليست غايةً بحد ذاتها، وإنما لغايات أخرى كثيرة، وهذا غاليلو العالم الفلكي الايطالي، وقد خالف مقولة بطليموس القائله بأن الشمس هي التي تدور حول الأرض، فاضطهد من قبل القسيسين، وطلبوا منه الكف عن ذلك، ولم يأبه بذلك.

---

[1] الأخلاق – ص:16.

وتُعدّ الأخلاق شكلاً من أشكال الوعي الاجتماعي، وهي ضوابط اجتماعيه تقوم بتنظيم سلوك الناس في كافة ميادين الحياة العامة، وكان لنشاط الناس العملي الدور الحاسم في نشوئها، ومن دون التعاون بين الأفراد ،ومن دون الالتزامات حيال القبيلة، لم يكن للإنسان أن يصمد في الصراع مع الطبيعة (إن الأخلاق كشكل من الوعي الاجتماعي تتبع من العلاقات الاجتماعية، وتتحدد في نهاية المطاف بالوجود الاجتماعي بظروف حياة الناس المادية، ولكن في إطار هذه التبعية للعلاقات الاقتصادية)[1] وأخلاق الناس نشأت ثمرة طبيعيه لضرورة حياة اجتماعية، فالحياة الاجتماعية التي لولاها لحاق الفناء بالنوع الإنساني(اعتبرْ دائماً الإنسانية ممثلة في شخصك، أو في أشخاص الآخرين، كما لو كانت غاية، ولا تعتبرها كوسيلة)[2].

إن الغايات تتفاوت في قيمتها، فهناك غايات دنيا مرتبطة بدوافع الإنسان الدنيا، كالدوافع العضوية، وغايات عليا مرتبطة بدوافع الإنسان العليا المثالية، والإنسان الأخلاقي هو الذي يستطيع السيطرة على دوافعه الدنيا وتهذيبها وتنظيمها، وجعلها في خدمة دوافعه العليا.

وكثيرة هي التعاريف حول مفهوم وتعريف الأخلاق في المعاجم الفلسفية، عند الإغريق،عرفت بكلمة الأطيقا(علم الأخلاق) والتعليل العلمي لهذه المنظومات لفهم الخير والشر والعدالة والواجب والضمير والسعادة ومغزى الحياة، إن الأطيقا كنظرية للأخلاق، بدأت تتشكل منذ أقدم العصور، وكانت منذ أول عهدها جزءاً من الفلسفة وإن تصرفات الفرد وسلوكه يتوقف على التوجه الفكري العام، ويرى البعض أنها غريزية، وأن المزاج الخلقي للإنسان هو صورة روحه، ويتعصب لهذا الأمر شوبنهاور الفيلسوف الألماني (يولد الناس أخياراً أو أشراراً كما يولد الحمل وديعاً، والنمر مفترساً، وليس لعلم الأخلاق أن يصف سيرة الناس وعوائدهم، كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان)[3] وهذا المبدأ يخالف مبدأ أرسطو وسقراط بأن العلم فضيلة والجهل رذيلة، ويلغي جانب التعليم والتأهيل والتدريب كما يلغي دور العقل في استنباط كل هذه المبادئ.

أما دعاة الجبر والحتمية في الأخلاق، ومنهم الفيلسوف الألماني كانط (إن الذي يشاهد موقف الإنسان في ظرف معين، ويعرف سوابق تصرفاته في مثل هذا الموقف، يستطيع أن يتنبأ صادقاً بما سيفعله في هذا الظرف المعين، كما يتنبأ العالم الفلكي بكسوف الشمس، وخسوف القمر في ساعة محددة)[4] كما يؤخذ على هذا التعريف، بأنه يلغي ما للإنسان من مشاعر وأحاسيس، ودوافع تتباين درجاتها بين الحين والآخر.

---

[1] المعجم الفلسفي المختصر ـ ص:13.
[2] الأخلاق في الفلسفة الحديثة ـ ص: 145.
[3] الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع- ص:10.
[4] الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع- ص:10.

يرى "جوليفيه" من خلال استعراضه لعدة تعريفات عند مفكرين وفلاسفة سابقين تعريف للأخلاق (بأنه العلم الذي يبحث في الاستعمال الواجب لحرية الإنسان، ابتغاء بلوغه غايته النهائية)[1] وهو يمزج بين مذهب الواجب، ولم يحدد الغاية البدائية والغاية النهائية في سلم المشاعر والأحاسيس، وهل ينضوي الزمان والمكان في تلك الغايات؟ إلا إذا كانت من أجل الدراسة والبحث والاستقصاء وإذا كانت الأخلاق علماً معيارياً، فهل يطبق ذلك على أرض الواقع؟ ولكن تبدو المسألة تنبع من هنا، وإن الأخلاق ما يجب أن يكون، وليس بما هو كائن.

يرى البعض من الفلاسفة أن الأخلاق(هي ملكة خلقية إرادية راسخة في النفس، تجعل صاحبها قادراً على تخطي الإفراط والتفريط، واختيار الوسط بينهما، بناءً على مبدأ عقلي سديد، وعلى نقيض ذلك تكون الرذيلة، وهي التنكب عن الوسط، واختيار أحد الطرفين الإفراط كلاهما شر)[2].

لكن القرآن الكريم يثبت الاستعداد المزدوج (وهديناه النجدين)[3] (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)[4]وأقرب إلى الخير (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)[5]

المذاهب في علم الأخلاق:

المذهب الأخلاقي هو منظومة القيم والأنساق المعرفية التي يرتكز عليها في جزئيات الموضوع، ومسألة الأخلاق ليست بعيدة عن الدراسات التي تناولتها حركة النقد العقلي، لتقويم ذلك النتاج الفكري، وتشخيصه بشكل دقيق كان ذلك في أواخر القرن الخامس عشر، وبداية عصر النهضة في أوروبا، فتناول الفلاسفة كل العلوم والفلسفات القديمة، فأخذ العقل يعرض كل شيء للنقد والتدقيق والاستقصاء مسايراً لحرية الفكر، مما جعله ينظر إلى النتاج الفكري والمادي بشكل مغاير لما كان عليه، يشوبه نوع من التدقيق والفحص، ويقومها تقويماً جديداً، ولم يقتصر على جانب واحد من العلوم فحسب، بل تناول علوم أخرى إلى جانب علم الأخلاق، كعلم النفس والاجتماع ، وكانت الدراسات تميل إلى الواقع والحقيقة، وليس للأحلام والأوهام، وقد أنتجت تغييراً في قيمة الفضائل، فلم يعد لفضيلة الإحسان مثلاً تلك القيم الكبرى، كما كانت في القرون الوسطى، وصار للعدل الاجتماعي قيمة لم تكن له من قبل، وعند انغماس الغرب في طريقة التفكير الأخلاقي بهذه الصورة المفرطة في المادية، واستعاضة ذلك في قيمة القانون والنظم، ولم تعد هي الأخرى ملزمة للإنسان، بحجة حرية الفرد الكاملة، ويبدو أن مسألة الحرية في مفهومهم لا

---

[1] الأخلاق النظرية – ص: 9.
[2] من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ص:208.
[3] سورة الشمس – آية:7.
[4] سورة الشمس ـ آية: 8.
[5] سورة التين- آية:4.

تحدّها حدود، ومن هنا ندرك البدايات الحقيقية لتفكك المجتمعات الغربية ، ولكن الملاحظ بأن نتاج العقل في الشرق كان مغيباً من تلك الدراسات، ومع الإقرار التام بأن الفعل الأخلاقي ترافق مع وجود الإنسان، وكان منبع الحضارة، فأين هي حضارة الشرق الذي تشكل نصف الكرة الأرضية في هذا المجال؟.

كما يشير كانط في كتابه "نقد العقل النظري الخالص"أن أي علم يجب أن يحاط بالقوانين، أما قضايا الشعور والإحساس فهي فردية ومتفاوتة، وما دام الإحساس كذلك، فهل يحقق المنفعة؟ وهل كل إحساس وشعور يمكن أن يحقق الفضيلة، وهل يكفي ذلك؟!.

إن السمة العامة للمذاهب الفلسفية للمسألة الأخلاقية، وطبيعة وجوهر هذه الاتجاهات، ولم يكن كل مذهب منفصلاً عن الآخر.

أخلاق المذهب الحدسي :

يرى أصحاب ذلك الاتجاه بأن الإنسان يدرك الخير والشر بوضوح عقلي تام ومباشر، فالاتجاه الرئيس في علم الأخلاق، يعبر عنه مذهب من أكبر مذاهب فلسفة الأخلاق، وهو المذهب الحدسي، والاتجاه التقليدي في علم الأخلاق هو وضع المثل العليا للسلوك الإنساني، لأنها قواعد تحدد مدى استقامة الأفعال ومدى صوابها، كما يدرس الخير الأقصى باعتباره غاية في ذاته، وهذا طموح الناس في الوصول إليه، وإن هناك غايات كثيرة في حياة الإنسان، فمن الناس الذي يجري وراء الشهرة أو المجد، وبعضهم الآخر يسعى وراء جمع المال،وهناك غايات أخرى لدى الإنسان، فالبعض منهم ينشد العلم والمعرفة .....إلخ........ وهذه كلها لا تُعَدّ غايات قصوى، لأنها مجرد وسائل لغايات أبعد منها على نحو ما ذهب أرسطو في تحليله للسلوك البشري وتحديده لألوان "الخير" الذي يسعى إليه الإنسان.

إن أصحاب هذا المذهب يعتمدون على جانب الحدس والعقل، ويرون أن الإنسان فيه نوازع للخير، كما فيه نوازع للشر، وهذا ما دعا أصحاب ذلك المذهب في تبيان أن كل التصرفات التي يسلكها الإنسان، لابد أن يضعها الإنسان في ميزان الحدس والعقل، الذي يأخذ بالتجريب لتتعزز النظرية، كما يذهب الحدسيون إلى القول بأن علم الأخلاق علم معياري، وليس علماً وضعياً، والمذهب الحدسي كان رداً على فلسفة "هوبز" الحسية التي تعتمد على مبدأ الأنانية، وفعل الإنسان ما يكفل حياته.

أخلاق المذهب الوضعي:

يشكل هذا المذهب اتجاهاً في علم الأخلاق من حيث نظرتهم إلى مجموعة مفاهيم ومعطيات، فالمذهب الوضعي يرفض أصحابه النظرة الحدسية السابقة لعلم الأخلاق، والتسليم بوجود علم الأخلاق يكون معياراً يبحث فيما ينبغي، لأن العلم يجب أن يبحث بما هو كائن، ولهذا انتقل

موضوع الفلسفة الأخلاقية، من دراسة السلوك الإنساني إلى بحث في سلوك الإنسان الذي يعيش في جماعة معينة تحيا في زمان معين ومكان محدد، وتحولت غايته من وضع مثل عليا للسلوك الإنساني إلى وصف هذا السلوك لدى الأفراد والمجتمعات البشرية، ومن أعلام هذا المذهب "اوجست كونت، دور كايم، ليفي بريل" وغيرهم، فيرون الأخلاق علماً وضعياً، والمتتبع للظواهر الأخلاقية يستخلص منها بعض المعايير، والدروس الأخلاقية التي قدمتها الإنسانية في علم الأخلاق، ليقال عن بعض الدارسين فلاسفة أخلاق، وليسوا أصحاب مذاهب أخلاقيه بالمعنى الدقيق، وهذه مغالاة فرويد في هذا الاتجاه للتحليل النفسي للجوانب الأخلاقية (والحق أن الأخذ بنتائج التحليل النفسي في الأخلاق، يهدر القيم والمعاني التي تقوم عليها قيم الخير والشر والواجب والضمير والطهارة الأخلاقية، ونسبية ذلك أن التحليل النفسي يبرر كل سلوك، ولا يفرق بين طبيب وآخر شرير، بل يرد كل شيء إلى فكرة السوي واللاسوي وهاتان فكرتان بمعزل عن الخير والشر الأخلاقيين)[1].

إذا كان الوضعيون يرون أن هذه المبادئ التي أوجبت صياغتها للفعل الأخلاقي، فلا يستطيع أحد منا أن يفاضل بين هذا الفعل أو ذاك، بما يمكن أن يسهم في تقديم أيهما أفضل ويحقق الخيرية، وإذا كان النمط سائداً، فلا يمكن أن يتميز عصر دون عصر آخر بالنسبة للفعل الأخلاقي، ولم يستطع المجتمع والعالم صياغة قانون أخلاقي قابل لكل زمان ومكان، وإذا كان هذا الشرط صحيحاً، فإن العلوم في مضمونها وجوهرها، تقديم فعل أخلاقي، وإذا كانت هذه العلوم تحقق فعلاً أخلاقياً، ولا تقف عند هذا الحد لما يحققه الفعل الأخلاقي، لأنه متوالية هندسية، وما ينشده الإنسان هو بعض الحالات تجتمع التجريبي والحدسي الذاتي والموضوعي معاً، في فعل الخير، ومعاني الأخلاق، فالذاتي يخص مقومات الشخص الذي يقوم بالفعل الأخلاقي، أما الموضوعي فهو ما يمكن أن يركز عليه الشخص لفعل دون سواه، أي بالمفاضلة بين أمرين، فيجد الفرد نفسه أميل إلى فعل هذا دون ذاك، ولو أنه توفرت له البيئة في مكان آخر لاختار الشيء الذي لم يختره في المرة الأولى، وفي موضع ثالث قد لا يختار كليهما معاً، ويعتبر ذلك شراً، وفعله لا أخلاقي.

أخلاق مذهب المنفعة "الأنانية":

ترتكز هذه النظره الأخلاقية عند "هوبز" على الفكرة الأنانية (أي أن الناس جميعهم يتصارعون كما تتصارع حيوانات الغابه) فإذا تهيأ للإنسان القوة، فيعتدي على الضعيف، ولو استطاع القضاء عليه، ما ادّخر جهداً، واستحوذ على ممتكاته، وبهذا يعاكس "هوبز" الفلاسفة الإغريق يقول هوبز: (إن الإنسان ينفر بطبعه من الإجتماع بغيره من الناس، فهو ميال الى العزلة، أكثر مما هو ميال للجماعة)[2] وكذلك يرى "هوبز" أن الجانب الأخلاقي يرتكز على مبدأ المنفعة

---

[1] الأخلاق النظرية – ص: 48.

[2] محاضرات في علم الأخلاق – ص: 84.

حفاظاً على الإنسان وبقائه، وجانب المنفعة في إطار الغيريه والأنانية، وإن حب الذات يجعل الفرد يرى أن المشفق يدفعه فعل الخير مصحوباً بلذة الزهو، التي يحصل عليها من العامة، بما يفعله من خير، وأن يطلب ذلك لامتلاكه القوة، وبهذا يكون مذهب "هوبز" ذا مصلحة أو منفعة في الفعل الذي يقوم به الإنسان، وربما تدخله هذه المصلحة،أو المنفعة بالهمجية لذلك الإنسان الهمجي، لا يعرف إلا مصلحته، فالإنسان عند هوبز(همجي شرير بطبعه، ينفرد بفطرته من الاجتماع بغيره من الناس، والتعاقد إنما جاء من رغبة كل فرد في أن يأمن على نفسه من شر أخيه)[1] وتوصف الفلسفة الأخلاقية عند "هوبز" بأنها تاريخية، وليست علمية، ولا تأخذ بأسباب التطور والتقدم، وهي الأخرى أيضاً ذات مغزى نفعي(إن أصحاب الأخلاق المنفعية، قد ارتكبوا جميعاً نفس الخطأ، إنهم طالما دعوا الناس إلى السلوك على أساس: انتَهجْ هذا السبيل لكي تحصل على السعادة، وإذا أنت لم تنتهج ذلك السبيل، الذي رسمناه لك، فلن تصل إلى شيء منها، أليس هذا دعوة إلى الأخلاقية نظير أجرة تقدم، لكن إذا كانت ألوان السلوك الفاضلة إنما هي أنانية مقنعة، وإذا كان كل إنسان يسعى بالنهاية إلى منفعة خاصة،فإن علينا أن نلاحظ أن هناك ألوانا كثيرة من المنافع يسعى إليها الإنسان، وهي كلها تهمة شخصية، وبهذا يصف الإنسان أنه أناني بطبعه)[2]و"هوبز" في النهاية يوحّد بين اللذة والخير، وبين الشر والألم، فالخير كما يقول هو ما يؤدي في النهاية إلى لذة أو مصلحة، أو منفعة للفرد ، لهذا يقتضي القول بأن الإنسان يعتبر خيِّراً بما يتفق مع شهوته ورغبته، فكل ما يحقق الرغبة هو خير، وكل ما يعيقها شر، ومن أتباع هذا المذهب "هنري مور ورالف كودرث وصموئيل كلارك".

أخلاق مذهب المنفعة(السعادة واللذة):

لا يختلف هذا المذهب عن مذهب المنفعة (الأنانية) ولكن الاختلاف هو من حيث تحقيق جانب المنفعة التي يراها دعاتها بما تحققه من سعادة ولذة، ومن أعلام ذلك المذهب "جرمي بنتام – ستيورات مل" وهما يشتركان في تلك الصيغة من حيث السعادة والقيمة، والتي لا تخرج عن نطاق النفعية، يعتبر أن المذهب النفعي له جذور قديمة، ويمكن إيجازه في سؤالين، الأول: ما الذي تعنيه بفعل الصواب؟ أن يؤدي أفضل النتائج، الثاني: ما هي النتائج ذات القيمة؟ إن السعادة هي ذات القيمة، وإذا جمعنا الإجابتين معاً حصلنا على ما قاله "ستيوارت مل" يكون الفعل صواباً بالنسبة إلى ما تحققه من سعادة، والفضيلة لديه هي ببساطة أن نتعود تحقيق السعادة سواء لأنفسنا، أو لغيرنا من الناس، لقد عبر "بنتام" بواقعية الحياة الإنسانية وإن تحقيق السعادة من خلال الفعل الأخلاقي، والذي بموجبه يتحدد ذلك الفعل بمدى الخير والشر، و"بنتام" يهدف إلى تحويل هذه الدراسات الأخلاقية إلى علم واقعي يمس حياة الإنسان، وما يمكن أن يحققه الفعل الأخلاقي لأكبر مقدار

---

(1) محاضرات في فلسفة الأخلاق ونظرياتها ـ 121.

(2) محاضرات في علم الأخلاق – ص:86.

من اللذة والسعادة، لأوسع شريحة من المجتمع، ومن هذه الزاوية تتحول الأخلاق إلى علم حساب لتقدير ما ينجم عن هذه الأفعال من لذات وآلام،ويتطابق مذهب اللذة عند بني البشر، وهو بذلك يرفض أن يقول: ينبغي على الإنسان أن يفعل كذا، ولكن عليه أن يقول: إن من طبيعة الإنسان أن يفعل كذا، وبهذا يخالف المبدأ العام للمسألة الأخلاقية، بأنها ما يجب أن يكون، وليس بما هو كائن، ومن هنا اهتم "بنتام" بوضع علم حساب لقياس اللذة، وما نقارن مع ما يحدثه من ألم أيضاً، ليتفاضل الفعل الأخلاقي بين الخير الشر.

الشدة والتيقن من تحقق اللذة، ومدى احتمال تحققها، والفعل الذي يحقق الآن لذة، يفضل فعلاً آخر يحققها فيما بعد الخصوبة أي ما يحتمل أن يتولد عنها من لذات الصفاء، أي تجردها من الألم في الشمول والسعة، ويراد به مدى امتدادها إلى عدد الذين يتمتعون بها، وللفكرة والشمول عنده خطرها الملحوظ في تكييف مذهبه، ولكن أمام هذا الحساب سيكون هناك عدم تجانس بين اللذات، فلا يمكن أن نقيس لذة القراءة، ولذة الحب أو الطعام، فلا يمكن أن تقاس إلا بمعيار معين، وإلا سيحتاج إلى معيار مثالي، لكي نصل إلى وضع معيار معين لهما، والتفاضل بين اللذات وغيرها، ومع ذلك فقد وضع "بنتام" مذهب الأخلاق على أساس اللذة، وبقدر ما يقدمه الإنسان للآخرين من لذة، لذلك يعمل الإنسان بالتعاطف مع الآخرين ومحو آلامهم، وكأنها آلامه، لأن الإنسان اجتماعي بالفطرة، ويرفض العزلة، فالتجريبيون لا يروق لهم في فلسفة الأخلاق الاعتماد على النوايا، لأن نتائج الفعل وآثاره شاهد على سلامة الفعل أو شذوذه (ولهذا تحققت النزعة الواقعيه في الأخلاق، وأصبحت الأخلاق لا تهدف إلى خلق أولياء وقديسيين، بل ترمي إلى توجيه النشاط الإنساني إلى إسعاد المجتمع قدر الإمكان وحساب اللذات، ما هو إلا محاولة لتقدير جهود الإنسان)[1].

إن فلسفة الأخلاق تسعى لأن تضع مُثلاً أخلاقية وسلوكية للإنسان

وفق دراسة المجتمع الذي يعيش فيه بكل تفاصيله، لتصاغ النظم الأخلاقية ومن الواقعية أيضاً يطمح "بتنام" لصياغتها مبنية على صيانة كرامة الفرد، بما عليه أن يتماهى مع المجتمع، ويسعى لتطبيق كل النظم الأخلاقية التي وصفها، كما يختلف "بتنام" عن "هوبز" حيث الأخير سلب حرية الفرد واستقلال ذاته واضعاً المرجع الأخلاقي له هي الدولة وحاكمها، ويجب إطاعته راغباً، أو كارهاً، أما فلسفة "ستيورات مل" فتأخذ نزراً من النظرية الأخلاقية التي تعتمد على الوازع الأخلاقي، ألا وهو الضمير، إن ألم الضمير من أقسى الآلام، لأنّ ما يقابله لذة لا تتناهى هي الرضى الأخلاقي الذي يستشعره الضمير المطمئن لهذا يبحث الإنسان عن السعادة.

إن غاية السعادة هي تحقيق أكبر قدر من اللذة كماً وكيفاً، وهو غاية السلوك الأخلاقي، وأن "بتنام" أقام مذهبه الجمعي والفردي مبنياً على أساس اللذة السيكولوجي، وإن المنفعة الفردية

---

[1] محاضرات في فلسفة الأخلاق ونظرياتها- 130.

هي توأم المصلحة العامة، وكان شعار مذهبه تحقيق اللذة الأكبر، لأكبر عدد من الناس وإن "مل" ـ مبدأ المنفعة ـ في مذهبه يتطلب من كل فرد أن ينصف غيره، ويُخلص في طلب منافعه إنصافه لنفسه، وإخلاصه في التماس لذاته، ومنافعه الخاصة، وبهذه الحاله يماثل "كانط" في المبدأ الثاني بالواجب في أن تتعامل مع الآخرين متمثلاً في إنسانيتك، وإن الأخلاق - المنفعة الكاملة ـ تبدو في قاعدة مؤداها أن تعامل الناس، بما تحب أن يعاملوك به، وهذه الركيزة الأساسية التي تدعم كل النظريات والمذاهب الأخلاقية، يقول "مل": إن قاعدة السلوك الأخلاقي هي بالضرورة أن نفعل من أجل الآخرين ما نحب أن يفعلوه من أجلنا.

مذهب أخلاق العاطفة:

إن من دعاة هذا المذهب "ديفيد هيوم" فهو يجعل معنى الخير أو الشر متوقفاً على النوع البشري دون سواه، من الكائنات الحيه الأخرى، ومن خصائص الطبيعة الإنسانية العواطف، التي تشكل ذلك المذهب، وتعاكس مذهب الواجب، فضلاً عما يقال عن أخلاق الواجب، هي أخلاق راكدة تنقصها القوة المحركة، ألا وهي العاطفة، إن نظريته سكيولوجية، طالما أنه يعرّف الخير والشر بأنهما ألوان من الانفعال، وهي ليست ذاتيه خالصة بالمعنى، إن لم يَشُبُها نوع من العاطفة، وكذلك يرى أن الأشياء خيّر، وبعضها سيّء، والأشياء الخيِّرة تثير عند جميع الناس أو معظمهم انفعالات استحسان، لأن هذه الأشياء خيِّرة كما يرى "ماكس شيلر" بأن العاطفة هي مصدر الإلزام الخلقي فإن أخلاق العاطفة، هذه تخالف في وقت واحد، أخلاق الواجب وأخلاق العقل.

مذهب أخلاق الواجب:

إن أفضل ما يمكن أن يقدمه الإنسان لنفسه هو الخير الأقصى، هو أداؤه لواجبه، وتحقيق سعادته، وإن ذلك الواجب متعلق بأمور القوانين والشرائع الخلقية، وهي مفروضة على كل إنسان، لتحقيق المصلحة العامة، وبهذا تعددت المذاهب الأخلاقية، وخاصة أنها مرتبطة بالقانون الذي يتطابق ويدركها العقل، ومتعلقة بالقوانين الإلهية والوضعية، لهذا حدد موضوع علم الأخلاق نفسه من جديد كقانون أخلاقي، وهو مجموعه قواعد مفروضة على الناس جميعاً، وقد وضعت لهداية السلوك الإنساني وإرشاده (إن المشروعية التي افترضتها كانت من جهة، وما يتصف بها الفعل الأخلاقي من جهة أخرى، لنفرض أن إنساناً أراد أن يسرق، فإنه إذا ما استسلم لشهوته يكون عمله بعيداً عن المشروعية، وعن الأخلاقية معاً، ولنفرض أنه امتنع عن السرقة، وبهذا يكون قد حقق المشروعية، وقد سلك مسلكاً مطابقاً للقانون، لكن هل هو لهذا السبب متصفاً بالأخلاق؟ علينا أن نمحص الأسباب التي من أجلها يمكن أن يمتنع إنسان عن السرقة، وإنها ليست من نوع واحد، فهل الخوف من سطوة الحرس الأرضي، أو من الحرس السماوي، أو خشية أن يفقد اعتباره، أو أن يخشى عقاب الضمير)[1] كما يظهر جانب الواجب، فعلى المرء أن يعرف أنه واجب (الواجب كلمة تستعمل فيما

[1] الأخلاق في الفلسفة الحديثة ـ ص: 62 ـ 63.

يقابل الحق، فما لغيرنا علينا، فحق لهم، وواجب علينا، وكثيراً ما يكلفنا القيام بالواجب مشقات ينبغي أن نتحملها، ويتطلب منا تضحية يلزمنا تقديمها، فالقاضي العادل قد يضطر إلى الحكم على صديقه، أو قريب له فيؤلمه ذلك، وقد يحمله حب العدل على إغضاب أفراد أو هيئات مختلفة، فيعرّض بذلك نفسه لأنواع شتى من الآلام، والجندي يقدم حياته عند الخطر فداء أمه، ورئيس السفينة إذا عُطبت يجب أن يبقى في السفينة حتى ينتقل جميع من فيها على قارب النجاة، وإعلان الإنسان رأيه، وتمسكه بمبدئه، قد يبعده عن منصبه، ويحرمه من فائدة، وفي جميع ذلك يجب أن يتحمل التضحية مهما ألمت به عن رضى وارتياح، ويجب أن نعد مكافأة الضمير فوق كل مكافأة، ولكن هنا ننتبه إلى أمرين: أن التضحية ليست مقصودة لذاتها، ولا يصح أن تكون غرضاً يريد الإنسان تحصيله، فهي ليست إلا ألماً محضاً ينبغي الفرار منه، إلا إذا استتبع خيراً مما فعله بعض الزهاد من الامتناع عن الأكل إلا النزر اليسير، وحرمان النفس من التمتع بما أحله الله، ولبس الخشن من الثياب، لا لغرض، إلا طلب المثوبة بهذا الشقاء – خطأ لا يرضى عنه عقل ولا دين)[(1)].

لقد اتجهت فلسفة الأخلاق في طريقين مختلفين فاعتقد النفعيون أن الخير مجرد شيء محسوس ملموس ومن ثم فقد راحوا يقيسون نتائج الأفعال بمعيار تجريبي أطلقوا عليه اسم "حساب اللذات" أما الطريق الثاني، فهو يرفض أن تكون الأخلاق رهناً ببعض الاعتبارات العملية المتعلقة بالنتائج أو الآثار وهي رهن بما لدينا من إحساس بالإلزام، وقد وضع "كانط" ثلاثة قواعد رئيسية للأخلاق: وهذه القواعد كانت منوطة بالواجبات لذلك سمي مذهب الواجب.

- القاعدة الأولى : تدعو إلى واجب القيام بالعمل مقرونة بالفعل(أفعل دائماً بحيث تكون قاعدة فعلك صالحة عقلياً لا أن تكون قاعدة كلية).
- القاعدة الثانية: تدعو إلى القيام بالواجب في العمل الإنساني، والتعامل مع الآخرين، ممثلاً في شخصك لتحقيق غاية سامية (أفعل دائماً بحيث تعامل الإنسانية في شخصك، وفي شخص الآخرين على أنها غاية، وليس أبداً على أنها مجرد وسيلة).
- القاعدة الثالثة: تدعو للقيام بالواجب بصفة مستقلة (أفعل دائماً بوصفك ذات مستقلة).

هذه القواعد التي وضعها "كانط" للأخلاق متوافقة مع القواعد الرياضية التي جاء بها، ويجد "كانط" (أنه مُخطئ إذا لم يعتمد في مسلمات الدين التقليدية، إلى أن وجود القانون الأخلاقي في أنفسنا يوحي هو نفسه بهذه العقائد ويبررها، ولكن هذا القانون لا يستمد سلطته منها،لأن سلطانه مستمد من ذاته، لا من هذه المعتقدات)[(2)] وبهذا المبدأ نرى أن "كانط" يماثل المذهب الحدسي بالنسبة للمسألة العقلية، الذي كان الناظم المشترك بينهما، الاتجاه العقلي (يرى كنط أن الفعل الأخلاقي هو الذي يتفق وقوانين العقل، فالعقل العملي يضع مبدأ الواجب كتشريع، أو قانون

(1) كتاب الأخلاق – ص:182.
(2) محاضرات في فلسفة الأخلاق ونظرياتها ـ ص: 161.

أخلاقي، إلا أن هذا القانون لا يستوحى من التجربة، أو من العاطفة بل يستمد من طبيعة الكائن الإنساني العاقل، الذي يمتاز بقدرته على تصور القوانين.

فالخير يرتبط بتحقيق الواجب، وحيث أحلّ "كنط" الواجب مكان الخير وردهُ إلى العقل وحده، هذه الدعوة قد عزلت العواطف عن الأخلاق، ونظرت إلى الإنسان بأنه كائن عقلي صرف، ولكن قد يصبح الفعل الأخلاقي بصورة أفضل، إذا أضفنا العواطف السامية إلى العقل في قيادة الإنسان.

ويعرف بارودي القيمة كما يلي (القيمة هي ناتج حكم تقدير، إنها تؤكد القابل للرغبة في مقابل ما يُرغب، فهي إذن أكثر من ذلك البريق الذي يصحب العقل، ويوجهه في أثناء الوقت الذي يتم فيه، وإنها فكرة بالمعنى الحقيقي فكرة عملية من غير شك، أي تشير إلى فعل مقابل، ولكن متميز من تحقيقه، وسبب للفعل الذي سينجز يفسره أو يبرره، ويسبقه ويبقى من بعده، إنه قانون لنوع خاص من الفعل، ولهذا فإنه في مستوى التأمل والرويّة، وفي وضع برنامج وخطة السلوك تتدخل حقاً فكرة القيمة)[1] .

والذي يهم الأخلاقي من كل هذه القيمة الأخلاقية، كما يقول لوسن(ليست القيمة الأخلاقية هي القيمة المطبقة، وإنما هي قيمة محددة متميزة من سائر أنواع القيم، ولا يحق لها أن تحل محل غيرها من القيم، أو ليس من حقها أن تفرض عدم الاحترام نحو الحق، وهو القيمة العقلية، ولا الازدراء نحو الجمال الذي هو القيمة الفنية، ولا الاستخفاف بالمحبة التي هي القيمة الدينية، إن كل واحد من هذه القيم تعبير عن القيمة المطلقة)[2].

وإن معنى الواجب عند "كانط " هو إنقاذ غريق بدون أن يكون له صلة قرابة، وأمانة التاجر واجبة، والمحافظة على حياة الإنسان واجب، والإحساس بالمحتاج واجب ، ويأمرنا القانون بالمحافظة على ملكية الآخرين.

كما يشير "كانط" بشكل واضح في كتابه(نقد العقل النظري الخالص) على نقد الميتافيزيقية التي عوّل عليها بعض الفلاسفة للمسألة الأخلاقية، ويرى ضرورة وضع علم للأخلاق، وكل علم يجب أن يُحاط بالقوانين أما الشعور والألم واللذة والسعادة، فهي قضايا متعلقة بالإحساس الفردي، ويطرح سؤالاً، هل كل قضية أو أي عمل يتعلق بالإحساس ستؤدي إلى المنفعة والسعادة، والإرادة الخيّرة لا يمكن وضعها إلا بالقياس؟ وما يجب عمله هو مبدأ الواجب ليتوحد مع الآخرين، وهذا الواجب يندرج تحت لواء العقل الذي بموجبه ندرك أهمية ذلك العمل الذي نقوم به، والذي لم يكن بعيداً عن الفضيلة والخير.

---

[1] الأخلاق النظرية ـ ص:30.

[2] الأخلاق النظرية ـ ص:32..

مذهب أخلاق العبيد وأخلاق السادة:

يتخذ هذا المذهب عناصر المذهب الوضعي، والذي يعتمد على ما كان من خلال صيرورة الفعل الاجتماعي عبر التاريخ، وتبادل الأدوار وسيادة أخلاقيات لدى السلطة التي يرى فيها نيتشه ذلك التناوب، بين النبلاء والسادة والنخبة، في فترة زمنية، لتنقلب لصالح الأكثرية التي يطلق عليها "العبيد"، وإن أخلاق العبيد انقلاب للكثرة العاجزة على الأقلية الرفيعة، فهي تأخذ مذاهب أيديولوجية، وتأخذ مسميات متنوعة، على الرغم من أنه لا يستثني الدين من ذلك في المسألة الأخلاقية(يعتمد نيتشه على الأخلاق السائدة، ويمثلها التراث الأخلاقي، وبما فيها الدين، ولقد تعاونت الفلسفة والدين، ويصل نيتشه من خلال ذلك أن أخلاق المسيحية في المجتمع، هي دعوة للرحمة والشفقة والعطف على الضعفاء، فالرحمة في رأي نيتشه ضرب من الشلل، لأننا نفقد بها بعض قوتنا الشعورية، حين نوجهها إلى مخلوقات لا يرجى لها إصلاح، ثم علينا ألا ننسى أنه في الرحمة شيء من الغلظة والاعتداء، فزيارتك لجارك المريض، هي نزعة استعلاء منك ترجو من ورائها أن ترى بعينيك عجز صديقك)[1]

ويرى نيتشه أن أخلاق السادة تتصف قبل كل شيء بأنها أخلاق للأقوياء، ففيها دائماً ما يشعرنا بالقوة والوفرة.

ويرى من خلال تجربته والإطلاع على الحضارات، فتتناوب أخلاق العبيد الأكثرية على أخلاق السادة الأقلية (وعلى ذلك فإن نيتشه يضع لتاريخ الأخلاق البشرية تقسيماً جديداً، ففي العصر اليوناني والروماني تسود أخلاق السادة، وتكون الغلبة للأقوياء، ثم تنتصر أخلاق العبيد على يد اليهودية والمسيحية، ويقهرون الأرستقراطية الرومانية، ويسود الضعفاء المتخاذلون، وفي عصر النهضة الأوربية تعود أخلاق السادة بالرجوع إلى المثل العليا اليونانية، ولكن تقهرها حركة الإصلاح الديني، وهي حركة شعبية أثارها الضعفاء والعوام، وتعود أخلاق السادة من جديد إلى الظهور عند نبلاء القرنين السابع عشر والثامن عشر، ليقهرهم العبيد مرة أخرى في عهد الثورة الفرنسية، وتظهر أخلاق السادة في الأفق على يد نابليون، ولكن سرعان ما تعود أخلاق العبيد بعده بالظهور على أن كل هذه الفترات التي تلت ظهور المسيحية، تتميز بأنها في أساسها فترات تسودها أخلاق العبيد، ولم تظهر أخلاق السادة فيها، إلا عرضياً لتختفي سريعاً)[2].

إن ما يستعرضه نيتشه في طبيعة الأخلاق، لدى السادة والعبيد في المجتمعات، نراه يسقط ذلك ما يجول في النفس البشرية، ويؤكد على الأنانية المفرطة بسلوكية الإنسان في مواضع متباينة(كثيراً ما نرى أن المحب يُهلك حبيبته، لكي يحول بينها وبين من يريد امتلاكها غيره، ولقد يخيل للناس أنهم في الحب أبرياء من الأنانية، لأنهم عندئذ إنما ينشدون الخير لمخلوق آخر)[3].

---

[1] محاضرات في فلسفة الأخلاق ـ ص:174.

[2] محاضرات في علم الأخلاق ـ ص: 178.

[3] محاضرات في علم الأخلاق ـ ص: 176.

الخاتمة :

إن الغوص في التمذهب الأخلاقي سيقودنا إلى عدد لا حصر له من المذاهب، وإن استعراضنا له يبين تلك الركائز والمحددات التي تعتمدها تلك المذاهب ومن الخصائص والسمات التي تتسم بها دون الأخرى، وهذا التباين هو الآخر الذي يضفي أهمية على كل جانب، وأثره في السلوك الخلقي للإنسان ، وهي تعالج الدوافع والميول والرغبات وأهميتها في صياغة الفعل الأخلاقي .

هناك مذاهب أخلاقية أخرى كالأخلاق الاشتراكية والأخلاق البرجوازية، وهي تدرس القوانين التي يجب أن تكون من حيث المجموع، وتركز على ما هو خارج نطاق الفرد، وتعلي الجانب الفردي، وهو الأساس في الجانب الأخلاقي قبل كل شيء، وبغض النظر عن الغاية التي يتبناها إن كانت فئوية أو عامة، ولكن لا نلغي ما للاشتراكية من دور في الحياة العامة للمجتمع في إطار القانون العام ما دمنا في ذلك، فأين القوانين السماوية التي جاءت بها الشرائع من نظم أخلاقية تشبع كل الرغبات والميول والاتجاهات كافةً في إطار منظم ومتوازن ومنظومة قيم للإنسانية جمعاء، بدلاً ذلك التخبط الذي لم يكن ذلك العقل بمستواها، ولم يأخذ العقل مكانه الطبيعي في منظومة القيم، إلا بها ويستمد منها مادته؟!.

وفي النهاية نستخلص المعاني والدلالات الآتية:

إن الفعل الأخلاقي الذي ينتجه الأفراد، وتتبناه الأمم والشعوب ،وتأخذ بالنظريات وتتمايز بها، هو فضيلة تندرج ضمن القيمة الحضارية لنتاج الإنسان عبر التاريخ، وتستمد القيمة الحضارية من موروثها الروحي، والذي لا يتوقف عنده، والأساس في المورث المادي فالتقصير في أي جانب يعتبر خللاً في الجانب الآخر، وخير مثال على ذلك الحضارة الإسلامية، فالأخلاق منظومة من القيم التي تتعلق بحياة الفرد، وتلبي كافة احتياجاته، ولا يمكن التركيز على جانب واحد، ولا يوجد أي مذهب من تلك المذاهب بصيغته الصرفة سلوك الفرد بعيداً عن كل العوامل الأخرى، وأي مذهب ليست له صفة الديمومة، ولن يحقق نظاماً أخلاقياً بالكامل، إلا إن نضبط أهواءنا ورغباتنا بلجام العقل، ونحقق التوافق مع الآخرين، ومن لا يحتكم لصوت العقل، لا دور له ويصبح الفرد عبداً لشهواته، ويقول أفلاطون: "عبودية العقل هي الحرية، وحرية الشهوة هي العبودية ".

المراجع والمصادر

1 ـ القرآن الكريم.

2- مختصر صحيح البخاري ـ تحقيق د.مصطفى ديب البغا ـ دار العلوم الإنسانية دمشق.

3- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية ـ د.عبد الرحمن مرحبا ـ بيروت.

4- معجم علم الأخلاق ـ دار التقدم موسكو 1984.

5- الأخلاق في الفلسفة الحديثة ـ تأليف اندريه كرسون ـ ترجمة: د.عبد الحليم محمود، د.ابو بكر زكري ـ دار إحياء التراث ـ 1984.

6- المداخل إلى علم الأخلاق ولترلبمان ـ ترجمة إنعام المفتي ـ مراجعة عبد الملك الناشف ـ المكتبة المصرية ـ صيدا بيروت عام 1967.

7- من تهذيب الأخلاق لمسكويه ـ أحمد بن محمد بن يعقوب ـ اختارها سهيل عثمان ـ وزارة الثقافة – 1981.

8- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية ـ جميل صليبا ـ ج:1 ـ دار الكتاب ـ 1928.

9- كتاب الأخلاق أحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت 1969.

10- محاضرات في الفلسفة الأخلاق ـ د.إمام عبد الفتاح إمام ـ مصر - 1974.

11 ـ تهذيب الأخلاق ـ تأليف الباحث الفيلسوف: أحمد بن مسكويه ـ مكتبة الحياة - 1961.

12 ـ الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ـ د.السيد محمد بدوي ـ دار المعارف ـ مصر ـ 1967.

13 ـ الأخلاق النظرية ـ تأليف د.عبد الرحمن بدوي ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ـ 1975.

14- الأخلاق عند الغزالي ـ زكي مبارك ـ مكتبة الشعب ـ القاهرة ـ 1924.

15- إحياء علوم الدين ـ ج:3 ـ الغزالي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر- 1950.

مقدمة ابن خلدون ـ دار العودة ـ بيروت 1996.

❑❑